إياد جمال الدين:
الطريق الى إصلاح المسلمين يمر عبر عرفان التصوف.

حاورته: فاطمة المحسن

فهل بمقدور مخاض السياسة الذي أنتج إياد جمال الدين ان يتجه أبعد من مداه كي يطاول الاجتهاد الفكري؟ المؤسسة الشيعية التي فتحت فيها أبواب الاجتهاد والتأويل الى حد المضي بعيدا في حرية العقيدة، كانت عاجزة عن إنجاب مصلحين إسلاميين مؤثرين، فجمال الدين الافغاني تحرك بين هوامش المؤسسات السنية،مخفيا هويته الشيعية، ولم يكن قادرا على بث فكره بين الشيعة أنفسهم،لأن فكرة الدين العصري الذي يتصل بأسباب الحداثة،لاتجد أذنا صاغية من الجماهير الشيعية التي تجد هويتها في تدينها الشعبي الذي ينطوي على ممارسات تتصل بالخرافة والسياحة الدينية أكثر من صلتها بالعلم والاجتهاد.

ظاهرة إياد جمال الدين ربما تدفع الى الاعتقاد بأن الشيعة في عراق اليوم يتطلعون الى الحاضر ضمن منهج براغماتي عملي، مستفيدين من تجاربهم في عراق مطلع القرن العشرين.ولكن هذه الخطوة، هل تمضي بهم الى حركة إصلاح توازي في زخمها تلك التي ظهرت في الازهر منتصف القرن التاسع عشر؟ هذا السؤال المؤرق كان مناسبة للحديث مع السيد جمال الدين، الذي كان مقلدا للسيستاني في مرحلة من حياته، ودرس الفلسفة والفقه في العراق وإيران.

س . نسمع في الاحاديث الخاصة والعامة عند التطرق الى اسمك عبارة تقول إنك رجل دين ليبرالي. كيف لك أن تفسر هذا المصطلح الذي صك في مجابهة الكنيسة، ومن بين حقول نشاطه الفاعلة فكرة الانعتاق من المعرفة الواحدية اليقينية،أي سلطة الدين. والانبياء والاولياء على وفق قواعد الطاعة الاسلامية، هم معصومون من الخطأ، فكيف تفسر ليبراليتك إن كنت تؤمن بصحة التسمية؟

ج . المنطلقات الأساسية للفكر الليبرالي اليوم إختلفت عما كانت عليه عند ولادة هذا المصطلح، فهو أصبح من السعة ليشمل تحت مظلته الكثير من متغيرات عالمنا المتحرك. الاسلام اليوم حركة تحرر للفرد، وفي الفكر الصوفي يتوغل بعيدا في خلق إنسان حرّ، علاقته بخالقه لا يحكمها الخوف. الدين التلقيني والايمان التلقيني لايمكن أن يكون إيمانا حقيقيا،لأنه يبنى على الخوف والطاعة المطلقة. وفي تراثنا للإمام علي (ع) قول يلقي بعض الاضاءة على هذا الجانب، فهو يقول: ((ولست بإمّعة في الرجال أسائل من ذا وذاك ما الخبر) وهذا يعني ان لي رأيي الخاص وأنا غير ملزم برأي الجماعة.

الليبرالية بتصوري تدعم حرية الفرد مقابل عجلة المجتمع الطاحنة، والاسلام في جانبه العرفاني على وجه التحديد، يعزز هذا التميز لدى كل إنسان. أما إضفاء صفة ليبرالي على، فانا لم أطلقها على نفسي، ولكنني لا أرفض هذا الوصف.

س- الاصلاح الديني الذي بشر به الافغاني والطهطاوي ومحمد عبده لم يطل العراق إلا في عهد النائيني ومحاولات هبة الدين الشهرستاني، وهي قبرت في المهد بسبب قوة الدعوة المتضمنة عودة الى الأصول الأولى للاسلام في ضفته السنية، وغلبة التدين الشعبي على ضفته الشيعية. فهل ترى إمكانية جديدة لانبعاث فكرة الاصلاح في العراق؟ لقد مر جمال الدين الافغاني على مجتمع النجف والبصرة والحلة من دون أن يستطيع النفاذ الى النسيج الديني الرافض لبنى التغيير التي تقبلتها مجتمعات إسلامية أخرى، كيف تفسر هذا؟

ج- عدم تأثير جمال الدين الافغاني في العراق نشأ من كون العراق هو مركز المرجعية الدينية الكبرى في النجف الاشرف، ولا يمكن لشخص بمستوى السيد جمال الدين الافغاني أن يحدث تأثيرا في النجف، لأنه بمقاييس النجف، أحد طلبة العلم الفضلاء، ولا يعتبر من كبار المجتهدين، وبالتالي يمكنه التأثير في أي مكان إلا النجف. ولنتذكر، ان السيد الافغاني نتاج هذه المدرسة، فالنجف هي التي قدمته الى العالم، فقد درس في مدارسها مطلع حياته، ثم غادر الى ايران ثم مصر، وعمله يحسب لفضائل النجف على العالم.

س . لكن الاصلاح الديني في مصر بدأ في مؤسسة الازهر، وهي من حيث حجم التأثير بين العرب والمسلمين تفوق النجف،بيد انها استوعبت فكرة ربط الدين الاسلامي بالعالم المعاصر، وخرج منها الشيخ رفاعة الطهطاوي في سبعينيات القرن التاسع عشر، بأفكار تبدو لقارئها كأنها تتقدم على زمننا بعد الردة التي نعيشها.

ج- من الصعب إحداث أي تغيير إجتماعي بجرة قلم، أوبكتاب يصدر هنا أو بتظاهرة أو قرار سياسي، التطور الاجتماعي أو الاصلاح ينبغي أن يأخذ مداه. يمكن للباحثين بعد مئة عام من الان أن يرصدوا تطورا في الموقف السياسي لدى القيادات الدينية في العراق، وتحديدا القيادات الشيعية، إذا ما قارنا بين موقف هذه القيادات في ٢٠٠٣ وموقفها في العام ١٩١٤، سنجد فرقا كبيرا، و وعيا سياسيا الان متقدما. تسريع خطى الاصلاح ربما يضر اكثر مما ينفع.

س: بدأ الازهريون، وهم الاقرب الى التصوف، ثورتهم الاصلاحية من مدخل الفكر العقلاني في الاسلام مستفيدين من تراث المعتزلة،وهم العراقيون الذين رحلوا كحركة وكيان فكري الى مصر بسبب إضطهاد السلاجقة.وها أنت تدعو الى الاصلاح من مدخل الافادة من التصوف العرفاني، فهل تجد أن هذا المدخل أصلح للعراق في ظرفه هذا،لا المدخل العقلاني أو فكر المعتزلة الذي إنقطعت جذوره أو اغترب في موطنه الاصلي؟

ج . العالم اليوم يحتاج الى الدفقات الروحية للتصوف، كل العالم يحتاج الى العودة الى المنابع الروحية للتصوف، وليس فقط عالمنا العربي والاسلامي.أنظري الى الغرب، أنه يهتم اليوم بجلال الدين الرومي وابن عربي وغيرهما من مفكري التصوف. عقلانية المعتزلة التي أفادت منها حركة الاصلاح في مصر، أنتجت إسلاما جافا يتعامل مع الانسان كآلة، وآلت الى حركة الاخوان المسلمين. وما القسوة التي نراها الان في الكثير من الحركات التكفيرية، إلا نتاج عدم القدرة على ملء الفراغ الروحي عند المسلم بنور التصوف.

الاصلاح الديني بتصوري، يمكن ان ينجز إذا أرجعنا الأمور الى نصابها بحيث تكون الشريعة جزءا من الدين وليس كل الدين. الشريعة نمت على حساب علم الكلام في الاسلام الحديث، على حساب التصوف والعرفان،فإذا حدث هذا التوازن حينئذ يمكن ان يظهر مصلحون في الوسط الاسلامي. اننا نعيش في حالة إنعدام التوازن الان، بسبب هيمنة الشريعة وأربابها على مقاليد الدين، وأظن إن من المبالغة بالأمل أن نتوقع ظهور مصلحين في هذا الوقت، لابد من أن تعود الأمور الى نصابها.

س- لنصل الماضي بحاضر العراق، كانت خطوة السيد السيستاني في الإقبال على العملية الانتخابية، ممارسة تخرج الدين من حاضنته القديمة الى حاضنة عصرية، ولكن ألا ترى انها استطاعت الاطاحة بركن أساسي من أوليات هذه الممارسة العصرية، وهي حرية الاختيار الشخصي،عقل الانسان الذي يملك أن يحتكم الى تجربته الشخصية ومعرفته كي ينتقي ممثليه؟. حين جعل السيد السيستاني هذه الممارسة فرضا دينيا محصورا بالاقبال على قائمة واحدة، إستطاع الالتفاف على المعاصرة بمبدأ الاختيار المشروط؟هل نشهد عهدا من الصراع باسم الديمقراطية لقبرها؟

ج - هذا الموقف هو نتاج طبيعي لهيمنة الشريعة على أمور الدين، لماذا أتخذت المرجعية هذا الموقف، لا أدري ولست ناطقا باسمها. الدروس الاولى للمواطنة لن تتحقق إلا إذا تطور وعي الفرد بذاته، حرية الانسان في الاختيار، وفي العراق هناك أرضية لقبول هذه التوجهات من المرجعية وغيرها.

س- لماذا لم يتدخل السيد السيستاني بإنتخابات إيران او افغانستان أو لبنان، وهو مرجعية في كل تلك البلدان، فهل رأى في الشيعي العراقي قصورا عن بلوغ المستوى الذي يؤهله للإختيار؟

ج- لم يتدخل السيستاني في الانتخابات الايرانية مع كونه إيرانياً، لأن هناك مؤسسة سياسية قائمة في إيران، ولا يوجد هذا الفراغ السياسي الذي شهده العراق. الذي حدث في العراق بعد سقوط النظام هو إنهيار كامل لمؤسسات الدولة التي كانت في الاصل موشكة على الانهيار في عهد صدام، كما أن الوضع الجديد ولّد قوى سياسية لم تُختبر قدراتها أو سعة حضورها الشعبي، وبالتالي تبقى المرجعية وحدها الفاعلة. من هنا كان التدخل حلاً طارئاً أو إستثنائياً، وهكذا يمكن أن نفهم الامور، ونتوقع ان لايحدث هذا في الانتخابات المقبلة او في المستقبل. فهذا التدخل أصاب المرجعية بأضرار كثيرة، فقد جيّر قرارها لصالح فئة محدودة من الشيعة. ليس من ديدن المرجعية التدخل في شأن هذا البلد أو ذاك سياسيا، أنما هي مرجعية عابرة للقارات تعالج الشؤون الدينية لأتباعها، وهي في هذا الجانب أقرب الى العلمانية منها الى الإسلاموية، لأنها لوتعاطت مع أتباعها في العالم وهم مواطنون في دول مختلفة، لشكلت منهم حزبا، مثل الاخوان المسلمين. المرجعية تتعاطى مع أبنائها في نوازعهم الروحية فقط وليست الاجتماعية أو السياسية، هي تتعامل معهم كافراد مقلدين في شؤونهم الخاصة من عبادات ومعاملات، ولم نلحظ ان المرجعية تدخلت في الشأن الاجتماعي فضلا عن السياسي. لم نسمع عن المرجعية تدخلها في شؤون شيعة البحرين، مع ان أغلبية سكان البحرين من الشيعة، انما هي تعالج إحتياجاتهم الخاصة وتجيب على أسئلتهم الخاصة. على هذا يمكن تبرير موقف المرجعية في العراق على أنه حصل بسبب الفراغ السياسي.

س . وجد الشيعة أنفسهم بين كماشتي الإرهاب العربي الاسلامي والاحتلال الاميركي، والتوتر بينهما يرجّح مبدأ التقية عند الاحزاب الشيعية التي وصلت عبر صناديق الاقتراع الى السلطة، فهي معّرضة للذبح من قبل الفكر التكفيري الذي يرفض التشيع، وهي مهددة بالإزاحة فيما إذا خالفت توجهات الاميركان في دولة تستنسخ النموذج الايراني؟ ومبدأ التقية يتناقض مع الانفتاح والديمقراطية، فهل ننتظر مشروعا للتقية يعيد ترتيب الساحة العراقية على وفق حرب التجاذبات بين إيران وأميركا الى زمن طويل؟ وهل ترى في إمكانية ولادة مشروع عراقي غير طائفي، ينتزع العراق من إيران والاحتلال معا، من دون حرب أهلية وخارجية طويلة الامد؟

ج- الضامن لبناء دولة ديمقراطية حديثة هو الولايات المتحدة الاميركية. وأنا بعكس النظرة السائدة حول ثنائية الاحتلال والاستقلال، أرى أن العراقيين الان أمام مهمة بناء مؤسسات دولة، وهذه المؤسسات ينبغي أن تكون محايدة ووطنية وحرفية،بعيدا عن النعرات الطائفية والحزبية، أما القيادة السياسية المناسبة، فتأتي عبر صناديق الاقتراع بمرور الزمن وبترسخ هذه القاعدة والضامن الحقيقي لبناء دولة مؤسسات هي الولايات المتحدة.

س- ولكن الولايات المتحدة لم تبرهن منذ إحتلالها العراق على وجود خطة لبناء دولة ديمقراطية، فضلا عن نية توفر الامان. أعتقد أن جزءا من المشروع الاميركي كان هو جذب الارهاب الى العراق.

ج- هذا يعني، إيمانك بنظرية المؤامرة.

س- من الواضح أن خطة رامسفيلد بتقنين حدود السيطرة عند إحتلالهم العراق ساعد على إزدهار الجريمة المنظمة في المجتمع، وبين الجريمة المنظمة والارهاب علائق جد وثيقة. لايبدو أن لأميركا مشروعا لصالح العراق، ولو كان لديها هكذا مشروع لما جعلته ساحة حرب أشد عنفا من الحروب السابقة.ثم ان بوش لايترك مناسبة الا وذكر فضائل إبعاد الارهاب عن أميركا بترحيله الى العراق.

ج- خطاب بوش هذا للإستهلاك المحلي الاميركي، والمشروع الاستراتيجي في بناء شرق أوسط كبير لايمكن التخلي عنه، وهذا المشروع يتكون من تكتل تديره دول ديمقراطية، ويقف نظيرا للأتحاد الاوربي،وهو متنوع الاعراق، متنوع اللغات متنوع الأديان، يشترك في وحدة إقتصادية وفي عملة واحدة وبنظم سياسية متقاربة. مشروع الشرق الأوسط الكبير هومشروع قديم ربما ينفذ على مراحل، وهو بتصوري لصالح الانسان العربي والمسلم، وبالتالي هناك خطة إستراتيجية ثابتة، وتكتيك يتغير. على وفق الراهن السياسي والأمني،أعتقد أن العراق من بين دول المنطقة، هو الأكثر جدارة بنظام ديمقراطي بسبب تنوعه العرقي والديني والطائفي، ولا يوجد بلد يشابهه سوى لبنان،ولكن لبنان بلد صغير ليس بحجم العراق وثرواته البشرية والطبيعية.

س- إذن أنت مازلت تراهن الى الان على أميركا؟

. ج- أنا حتى الان لم يتملكني اليأس،مهما كانت كبوات المرحلة، فسيجري تصحيحها بمرور الوقت. نعم هناك حرب عالمية ضد الارهاب ساحتها العراق والشرق الاوسط،بل العالم بأكمله، وهذا الارهاب ببعده الفكري والعقائدي فضلا عن الامني والسياسي والعسكري يجب مواجهته، بحركة إصلاح قوية وإعادة التوازن للدين، بحيث يزيل هذا التمدد للشريعة على حساب العرفان والاخلاق والتصوف والعقائد. تصوري ان الشريعة بتمددها على علم الكلام او على العقائد غيّبت الجانب النظري في العقائد وأصبح الفقه هو المهيمن وأصبح ينظر الى الانسان بأعتباره كافرا على الهوية، ولا ينظر الى مايقوله او يفكر فيه. إعادة التوازن الى الدين هي بادرة للأصلاح،ماعندنا في العراق هو خطوة أولى ضمن إستراتيجية طويلة لاعادة التوازن. سيخرج العراق منتصرا ولن يخطفه الارهاب.

س . إلا يتعارض هذا الكلام مع ليبراليتك، التي ينبغي أن ترى الأمور خارج اليقينيات والمطلقات؟

ج . بل هي تندرج في باب قياس الامور على وفق منطقها العقلي.وأنا لاأخاف أن أوصف بأي وصف عندما أقف مع المشروع الاميركي، فهو المشروع الوحيد الممكن لصالح مستقبل العراق.

س - تدور المعركة اليوم على خلفية إجتماعية ترى في حرية المرأة وقانون الأسرة العصري، أحد مفاصل الصراع المستميت في الدستور العراقي، لماذا هذا الإصرار على المرأة؟ لماذا لايجري الصراع على مراكز أخرى في قوى التغيير؟ هناك الكثير من البنود في قوانين حقوق الانسان التي وقعت عليها الدول الاسلامية لاتتماشى مع القيم القديمة للإسلام، منها قانون أخذ الجزية من غير المسلمين أو قانون الرق،لماذا الاصرار على المرأة؟

ج . هناك تصور ساذج لدى الكثير من المتدينين يختزل الغرب بصفتين: التحلل الاخلاقي والتقنية المتطورة، وهم ببساطة يريدون التقنية ويرفضون ما يسمونه التحلل الاخلاقي. ولا يمكن إختزال الغرب بهاتين السمتين، هذا ما يطفو على السطح في نظام قيم متشعب ومتعدد الاوجه.الانفلات الاخلاقي لايمكن أن ينتج انسانا ملتزما منضبطا يبنى حضارة ومدنية متطورة مثل التي نشاهدها في الغرب.

موقف المتدينين هو رد فعل ضد المد الغربي، فالغرب بتصورهم هو الانفلات الاخلاقي الذي يستهدف الاسرة،ومن هنا كانت الجهود منصبة على الاسرة الحاضنة الاولى للفرد، والدافع لهذه المواقف هو الخوف من الاخر ومن كيده ومن مكره، ومن فكرة إنقضاضه على العالم الاسلامي وركيزته الاسرة.

س- هذه المعركة كانت معركة التنوير العربي في مصر والعراق وسواهما، الطهطاوي جعل من نفسه امثولة حين وقع عقد زواجه بإشتراطات على نفسه قبل غيره،رجال الدين الرافضون حقوق المرأة يتمتعون بإمتيازات تعدد الزوجات وزواج المتعة عند الشيعة والاستيلاء على إرث النساء عند السنة. الشرع الذي يتحدثون عنه لايعني الفقراء كثيرا، ولكنه يتمدد الى حقول الحياة المختلفة ليحجب النساء خلف جدران المستفيدين منه.

ج . المطلع على الوضع الايراني اليوم يعلم ان هناك قسائم معدة من وزارة العدل تتضمن نحو ١٧ شرطا كلها لصالح المرأة،بما فيها العصمة في الطلاق، وحقها في إقتسام الثروة مناصفة مع زوجها عند الطلاق، وإذا تزوج بإمرأة أخرى تضع تلك القسائم أمامه عقبات وقيود تجعله ينفر من هذا الفكرة.

س . هل هذا الانجاز الذي يخالف في نصوصه الاعراف الاسلامية حصل بتأثير الحركة النسائية الايرانية او ان السلطة حسمت المنافسة الممكنة بين الرجل والمرأة سياسيا وإجتماعيا، فلم تعد المرأة تشكل خطرا على المشرعين أنفسهم.

ج . لاهذا ولا ذاك، المجتمع الايراني مجتمع أمومي وليس ذكوريا، ومنذ القدم الأم في إيران لها المكانة الاولى في البيت، ولهذا المشرع الايراني سواء أكان مجتهدا ام مشرعا في البرلمان هو ابن بيئته. لنلاحظ شخصية المرأة في السينما والتلفزيون الايراني، في كل النتاجات سواء تلك التي ظهرت في عهد الشاه ام مابعد الثورة، المرأة تتصف بكل صفات الجودة، انها الحكيمة والمدبّرة والمقتصدة بعيدة النظر والصبور المتحملة أما صورة الرجل فعادة ما يكون أحمق، أخرق متسرعا. هذه فكرة الثقافة الشعبية ولا توجد ما يماثلها في العراق.

س- من أنت ؟ وما مصادر معرفتك، وهل لك علاقة بالمعرفة خارج الفقه الديني؟

ج- أنا درست في الحوزة العلمية بالنجف، وفي عام ١٩٧٩ غادرت الى ايران واكملت دراستي في قم، عندي ماجستير في الفلسفة بعد ان عادلتها في الجامعة.أكتب الشعر وأتابع الادب والتاريخ والفكر الحديث.

س- نسمع ونقرأ ان هناك تيارا جديدا ظهر في قم يشكل حركة في الاجتهاد تحاول الخروج عن التيارات السائدة، وهؤلاء المتضلعين بالعلوم والفلسفات الحديثة، يصلون بينها وبين الاسلام التنويري الجديد، فهل تنتمي انت الى هذا التيار؟.

ج- نحن جيل من العراقيين ظهر بمعية كوكبة من الايرانيين الذين لهم دالة على الثورة وشاركوا فيها، ولكنهم يشكلون الان حركة إصلاح انطلقت من قم وامتدت الى انحاء العالم العربي وبينه العراق.ولعل أبرز ممثليهم محمد مجتهد شبستري، العالم والمفكر المعروف.

إياد جمال الدين يكاد يكون ظاهرة بين رجال الدين الجدد. وهو قدر ما يجلب الاضواء بطروحاته المتكررة عن الدين التنويري ، قدر ما يثير الالتباس في علاقته بالسياسة ،فهذا المعمم الشاب ، يبدو كأنه يغرد خارج سرب المؤسسة الشيعية مع كونه خريج مدرستي النجف وقم.وعلى خلفية التواريخ المتضاربة التي رافقت تحولات الشيعة وانتقالهم بين فرسخي الحداثة والتخلف ، نجد اليوم بينهم حركة للتنوير تحتويها قم وتضم بين ظهرانيها مجتهدين من العراق.